مكية الجزء الثلاثون سورة الانشقاق آياتها ٢٥

سُورَةُ الِانْشِقَاقِ، مَكِّيَّةٌ، وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أَيْ: واذكر إذ تشققت السماء وذهب ترابطها، وسقطت نجومها وانكدرت كواكبها، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أصغت، والأذن هو الاستماع والمعنى أنها أصغت لكلام ربها وأمره بالتشقق ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها أن تلتزم أمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإن تمردت على أمره فإنما هو قائل: كن فيكون، ولذلك حين عرضت عليها الأمانة أبت أن تقبلها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب:٧٢].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قيل: وسعت يوم القيامة حين يحشر الناس عليها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ألقت ما فيها من المدفونين في قبورها وما قد حملت من أصناف المخلوقين، فإنهم يبعثون يوم القيامة «**حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»(٢)، كما قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار:٤]، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت لكلام ربها ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها ذلك؛ لأنها مخلوقة مأمورة بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نداء للإنسان المكلف ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ إنك صائر إلى الله، وإنك في طريقك إلى الله ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يوم القيامة، واللُّقي يكون معه النظر، حتى نقل ابن خزيمة وابن القيم وغير واحد على ذلك الإجماع، وهو مما استدل به أهل العلم على رؤية جميع من في

---

(١) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الموقف الرب عَزَّوَجَلَّ ثم يحتجب عن الكافرين.

فكل إنسان كادح إلى ربه، المؤمن، والكافر، إلا أن المؤمن يكون كدحه وسيره بالأعمال الصالحة المقربة من الله عَزَّوَجَلَّ، والفاجر بعكسه، فحال المؤمن كما قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] هذا المؤمنون، وحال المجرم كما قال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أصناف الناس في يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم أهل الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة:١٩]، وقال: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء:٧١].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أَيْ: تعرض أعماله عليه، ففي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»(١).

وعَنْ أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا**» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ(٢).

وقد فسر النبي ﷺ الحساب بالعرض: فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَ: «**ذَلِكِ الْعَرْضُ**»(٣)؛ لأن النقاش إنما يقع من الكافرين المعرضين الكذابين ومن إليهم من

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، مسلم (٢٨٧٦).

المنافقين، وأما المؤمن حين يوقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ هو عالم بأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية، فما يكون منه إلا أن يعترف لله عَزَّوَجَلَّ بكل ذنب حصل منه، فيتجاوز الله ويعفو ويصفح؛ لأنه العفو الغفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ بعد العرض والحساب ينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا فرحًا بما أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ من الكرامة، ومنها قول رسولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(١)، ومن الكرامات النظر إلى وجه الله العظيم، والشرب من حوض النبي الكريم، وشفاعة النبي ﷺ فيهم، وغير ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ الكفار، يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وهو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥﴾ [الحاقة:٢٥]، لما فيه من الأعمال السيئة الدالة على فساد ظاهره وباطنه.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ يدعو على نفسه بالويل والثبور، والحال كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان:١٤] ادعوا على أنفسكم بالهلاك الكثير، فلن يستجاب لكم، ويخلَّدون في نار جهنم ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦].

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ يُلقى في النار تحيط به من جميع جوانبه والله المستعان ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦]، وسبب الخزي الذي هو فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ فأمن مكر الله جَلَّجَلَالُهُ والله يقول: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، أمن في الدنيا فخاف في الآخرة، والمؤمن خاف في الدنيا فأمن في الآخرة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾ أَيْ: تيقن؛ لأن الظن يأتي بمعنى اليقين ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ أن لن يرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكان مستيقنًا بذلك، بل كان يستبعد الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩).

﴿ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۚ﴾ [السجدة:١٠]، ﴿بَلَىٰ﴾ إنه سيرجع، وزد على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ كان به عليمًا مطلعًا على جميع أعماله، زد على ذلك أن الله قد وكلَّ ملائكة يكتبون ما عليه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ أَيْ: أقسم بالشفق وهو الحمرة، وقيل البياض، والصحيح أن الشفق اسم لمجموعهما: الحمرة والبياض، وهو الضوء الذي يكون بعد غروب الشمس، إلا أن الشفق الذي تتعلق به صلاة العشاء هو الحمرة.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وأقسم بالليل، وما ضم وجمع ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ وأقسم بالقمر إذا كمل وتتام، ويكون ذلك في نصفه.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالًا بعد حال، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]: «**حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ** ﷺ»(١)، والله أعلم.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: ما الذي جعل الكفار يعرضون عن الإيمان والتزام شرع الله عَزَّوَجَلَّ مع توافر الحجج وظهورها: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ مع أن القرآن فيه من المواعظ والذكرى ما تتشقق به الحجارة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ [الرعد:٣١]، أَيْ: لو كان شيء مقروء ومكتوب تسير به الجبال الرواسي، وتقطع به الأرض الصلبة، لكان هذا القرآن الذي بكت من قراءته قلوب المؤمنين ووجلت ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢]، وازدادت به قساوة قلوب الكافرين، فما لهم لا يؤمنون بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٠).

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ سواءً من غيرهم أو قرأوه هم ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**»(١).

وقد قرأ النبي ﷺ سورة الانشقاق في صلاة العشاء وسجد، كما جاء من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين» فعَنْ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ العَتَمَةَ، فَقَرَأَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١]، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ: «سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي القَاسِمِ ﷺ، فَلاَ أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»(٢).

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ والسبب الذي جعلهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؛ أنهم يكذبون بوعد الله ووعيده، ويكذبون محمدًا ﷺ الذي أرسل إليهم ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢] فبسبب اعتقادهم أنه ساحر أو مجنون كذبوه وردوا دعوته.

ولما أخبرهم ﷺ أنه أسري به إلى بيت المقدس، كلهم تعاظم ذلك، مع أنه وصف لهم بيت المقدس وصفًا دقيقًا، بينما المؤمنون إذا أخبروا بشيء قالوا آمنا وصدقنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ - وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، - وَمَا هُمَا ثَمَّ -**»(٣).

فكان الصحابة رضوان الله عليهم على غاية من تصديق النبي ﷺ، وكان الكفار على غاية من تكذيبه فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء:٢١٤]، وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «**يَا صَبَاحَاهْ**». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ**

(١) أخرجه مسلم (٨١).
(٢) البخاري (٧٦٦)، ومسلم (٥٧٨).
(٣) متفق عليه، البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

مِنسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ؟ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا. ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد:١]، وَقَدْ تَبَّ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ(١)، ويقول هرقل لأبي سفيان: «هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ»(٢)، وقد يكون تكذيبهم أيضا بسبب ما عندهم من الحسد والكبر والعناد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات:٣٥].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أَيْ: والله مطلع ومحصي لما هم عليه من الحال، ولما جمعوه في قلوبهم من الكبر والحسد، والبغي، والغل، الذي أوجب لهم عدم الدخول في الإسلام.

قَالَ أَبُو جَهْلٍ: «إِنَّا كُنَّا وَأَنْتُمْ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ فَاسْتَبَقْنَا الْمَجْدَ مُنْذُ حِينٍ، فَلَمَّا تَحَاذَتِ الرُّكَبُ قُلْتُمْ مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا تَقُولُوا مِنَّا نَبِيَّةٌ، لَا أَعْلَمُ فِي قُرَيْشٍ أَهْلَ بَيْتٍ أَكْذَبَ رَجُلًا، وَلَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنْكُمْ، فَآذَوْهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ الْأَذَى»(٣) أَيْ: العَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يكتمون ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم أن لهم عذابًا شديدًا في القيامة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثنى الله عَزَّوَجَلَّ أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين يلتزمون شرع الله ظاهرًا وباطنًا ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ لهم جزاء على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة:٣٣]، وقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨]، إذا أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بدخولهم الجنة كانوا في خلود لا موت، يتنعمون، ويأكلون، ويشربون ويلبسون، ولا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، فينعم المؤمنون نعيمًا كاملًا تامًا في جميع أوقاتهم ولحظاتهم، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»(٤).

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) متفق عليه، البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٠).
(٤) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.